

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٣ —

الفلسفة الصينية

أهم المصطلحات أو الفلسفة العملية

أشرنا في الفصل السابق إلى أن فلسفة الخاصة لم تتأثر ألبتة بأفكار العامة ولم تحمل أى طابع من طوابع العقيدة الشعبية ونجزم هنا بأن عكس ذلك هو الذى وقع أى أن العامة هى التى تأثرت بفلسفة الخاصة ، ولكنه تأثر أخلاقي غسب ، وإنما نقول غسب ، لأن فلسفة الخاصة النظرية ليس لها على عقيدة العامة إلا آثار طفيفة لا تكاد تذكر ، فبينما نرى فلسفة الخاصة تعجز عن رفع الجماهير إلى الإيمان بـ « شاخ — تى » وهو السلطان الأعلى نشاهد فلسفتها العملية تسود الشعب كله خاصة وعامة ، بل وتلون عقيدة الجمهور بذلك اللون الأخلاقي الراقى

نحن نعلم أن الصينيين كانوا يرون أن السماء كائن متحرك تبعاً لقانون منظم ، وهذا القانون يربط القوى الثلاث : السماء والأرض والإنسان ربطاً محكماً ، وإن كان لكل واحدة من هذه القوى فى الظاهر طريق خاص أو غاية مقصود تحقيقها . فغاية السماء تسمى : « تيان تآو » . وغاية الأرض تسمى : « توتآو » . وغاية الإنسان تسمى : « جين تآو » إلا أن هذه الغايات ليست فى الحقيقة إلا غاية واحدة ، وهى غاية العالم أو قانون الطبيعة أو واجب الوجودات

لهذا الارتباط المحكم بين تلك الغايات الثلاث أثره العميق فى كل شئ ، إذ لا يكاد اضطراب بسيط يحدث فى أحدها حتى يتردد صدها فى جميع جزئيات الآخرين ، فمثلاً إذا حاد الإنسان عن الطريق السوى ، فاقترب جريئة من الجرائم حدث فى الحال اضطراب فى السماء والأرض ، وليس الكسوف والخسوف

والزلازل وظهور الكواكب ذوات الأذنان والجذب والأوبئة ليس كل ذلك إلا نتائج جرائم الإنسان وحيدته عن الطريق المستقيم ، فإذا ما حدث فى السماء هذا الاضطراب الناشئ من سلوك الإنسان وأعقبه اضطراب الأرض عاد الأثر من جديد إلى السماء فتضاعف اضطرابها . ولهذا تقول « أونج فان » أو القاعد العظمى ، وهى أقدم مستند فلسفى صينى : إن سلوك احترام مرء يستحق الاحترام يجلب النيث فى الوقت المراد والتبصر يجلب الحرارة فى الوقت المراد والتمرن على التأمل يجلب البرودة فى الوقت المراد ، وحكمة الملك تجلب الهواء فى الوقت المراد ، ولكن الغطاء تديم الطر من غير انقطاع ، والكسل يديم الحرارة من غير انقطاع ، والتهوس يجلب البرد من غير انقطاع ، واحتقار ما يستحق الاحترام يجلب الجذب ، والحماقة تجلب العاصفة »

وإذا رأينا أن الصين يربطون المظاهر الطبيعية بالفضاء والأخلاق إلى هذا الحد ، استطعنا أن نجزم بأن الواجب الذى كان له القيادة العليا فى هذا الشعب ، وبأن كل فرد يحاول بقدر طاقته أن يكون فاضلاً حتى لا يكون مجلبة للوباء للجذب فتشقى بسببه الأمة جماعاً ، ولكن الفضيلة عندهم تكن تتحقق بعمل أو ببضعة أعمال خيرية وإنما هى كمال اننا وتحقيق الاستنارة الثامة للنفس ، واتباع الصراط السوى فى شئ ، ذلك الصراط الذى هو موجود بالفطرة لدى كل ر بشرية والذى هو برهان احترام النفس الإنسانية وارتباطها باله وأكتر من ذلك أن المستصينين الذين اشتغلوا باللغة الص عثروا فى دراساتهم على أن كلمة : « تآو » التى هى الطر المستقيم أو الغاية المثلى لكل الكائنات أو تحقيق الواجب أيضاً على نصيب الإنسان الممنوح له من السماء ، وهذا بر آخر على ارتباط الفضيلة والواجب بحظ الإنسان فى الحياة هؤلاء القوم .

وعند الصينيين أن الإنسان خير بفطرته ، لأنه جزء الطبيعة والطبيعة هى الإله ، ولكن الإنسان ليس بجبراً على اتباع طبيعته الخيرة دائماً مثل النبات أو الحيوان ، وإنما هو كائن مفكر كسب واختيار قد يبعدانه أحياناً عن الصراط السوى الذى صرت السماء أو صوت الطبيعة . أما الخير الموجود فى نفس

إفهام الأتواء والأغنياء أن الضعفاء والفقراء خير منهم ؛ وأن هذه الخيرية سر غامض كامن وراء هذه المظاهر السطحية الخداعة من غنى وقوة وجه . ومن هذا ما يقوله كتاب « إى - كينج » : « إن الهواء الذى يصفر فى السماء إنما هو تصوير لقوة الرجل الذى يظهر صغيراً ، وإن الرجل الذى يمشى فوق ذيل النمر دون أن يعضه هو الذى سينجح ، وإن التواضع يخلق النجاح ، وإن الحكيم التواضع يستطيع أن يجتاز البحر الأعظم »

ويعلق أحد الباحثين على هذا بقوله : ولكننا يجب علينا ألا نفهم أن الرحمة التى تدعو إليها الديانة الصينية هى الرحمة التى تجر إلى الضعف ، وإنما هى الثبات فى وداعة والصلابة فى تحقيق الواجب . وعلى الجملة هى المقياس المضبوط فى كل شئ أو هى الاعتدال أو التوسط فى كل شئ ، وهذا التوسط كانوا يسمونه : « تشونج » أى الفضيلة فى ذاتها ، وفيها يقول « إى - كينج » : « إن أحمال فظاظاة الأفظاظ فى وداعة ، واختراق الأنهار فى ثبات وشجاعة ، وعدم إهمال البعيد ، وعدم الانشغال بالغير ، كل هذا مجتمعاً هو الذى يحقق السير فى طريق الاعتدال الأوسط » وهناك نص يعد من أقدم نصوص كتاب « شو - كينج » يقول : « إن الفضائل التى تصبّر الإنسان غاية فى الكمال : هى المنونية مع الجدد ، والتخلى مع الثبات ، والحشمة مع البساطة ، والحزم فى السلطان مع الحكمة ، وسهولة الانقياد مع القوة ، والصلابة فى الاستقامة مع الوداعة ، والرحمة مع التميز ، والشدة مع الإخلاص ، والشجاعة مع العدالة . فإذا اتبع رعائك هذه الحماد ، فإنهم سيكونون مستقيمين فى الطريق السوى »

من خلال هذا كله نلمح فى سهولة أن الأخلاق الصينية قد أقيمت منذ أقدم عصورها على أساسين جوهريين : الأول المثالية العليا والثانى سعادة المجتمع . ويعلق العالم « زانكبر » على هذا بقوله : ولقد فهم بعض الباحثين أن الأخلاق الصينية نفعية جافة فظة . وفى الواقع أن النظرة السطحية المتسرعة فى فلسفة الصينيين لابد أن تنتج هذه النتيجة ، إذ لا يكاد الباحث يتصفح كتبهم حتى يلتقى فيها بقاعدة « الفضيلة طريق السعادة » أو « السعادة غاية الفضيلة » فإذا كان الباحث من أولئك الذين لا يكافون أنفسهم التعمق جزم بنفعية هذه الأخلاق ، بل بأنانيتها

فليس كامل التكوين ، وإنما هو موجود على هيئة استعداد فقط وعليه هو أن يحققه حتى تصبح الفضيلة طبيعة عملية له .

وهنا أحسب أنى لست فى حاجة إلى التنبيه إلى أن الصينيين قد سبقوا الرواقين إلى هذه النظرية بعدة قرون حيث قرر هؤلاء الأخيرون أن الإنسان هو جزء الطبيعة التى هى الإله ، وأنه خير بفطرته ، وأن الشر لا يقع منه إلا إذا حاد عن طبيعته ، وأن هذه الحيدة لا تأتبه إلا من التفكير وحرية الاختيار .

وعلى ذكر حظ الإنسان الذى تمنحه إياه السماء ينبى لنا أن نشير هنا إلى أن القدر كان عند الصينيين على نوعين : الأول هو الأقدار الناشئة عن أفعال الإنسان نفسه ، وهذا النوع لا يمكن تعديله أو التنوير فيه . والنوع الثانى هو الحظ الذى تبدأ السماء بتوزيعه على الإنسان ، وهذا يمكن تظيفه أو تحويل شره إلى خير كما ينص على ذلك كتاب « شو - كينج »

رفع الصينيون إلههم إلىسمى آواج الكمال الخلقى فترهوه من الظلم وعن الاستثناء (المحسوبة) فن المستحيل مثلاً أن ينزل لبشر الآلام والأرزاء اتباعاً لهواه ، أو أن يطرد من رحمته إنساناً مجرم ، أو أن يعفو عن آثم لم يقلع عن إثمه كما كان يفعل آلهة بابليين والعبرانيين ؛ وإنما هو إله فاضل يمنح النعمة والسعادة بخيار ، ويقسو إلى أقصى حدود القسوة على المجرمين والأشرار . فى هذا يقول كتاب « شو - كينج » مانصه . « إن الفضيلة حدها هى التى تؤثر فى السماء ، وإنه لا يوجد أمام الفضيلة ألبنة بعيد بحيث تعجز عن اللحوق به ، وإن المتكبر منخفض ، لتواضع مرتفع ؛ فإذا لاحظت ذلك ، فإنك ستسير على صراط بهاء ... »

من الفضائل الهامة التى نصت عليها الأخلاق الصينية الرحمة ، بحسب للصغير على الكبير ، وللضعيف على القوى ، وللفقير على الغنى . ويحدثنا أحد العلماء بأن الآية الموجودة فى الإنجيل فى هذا الصدد موجودة بنصها فى أقدم الكتب الصينية وهى : « إنما السعداء هم الرءاء » راجع الإنجيل وكتابى « شو - كينج » « إى - كينج »

ومما لا شك فيه هو أن الفلسفة العملية الصينية لم تكف غلة عن مهاجمة المنفعة وعن الأمر بالرحمة فى المعاملات ، بل وعن

لا تتوقف على جاه ولا مولد ، وفي هذا يقول « شو — كينج » :
 « إن من يستضيء بالفضيلة الساطعة هو وحده الذى يمكن أن
 يسمو ولو كان ابن فلاح » وهذه القاعدة الأخلاقية تعلن في
 صراحة أن « الأباطور » إذا حاد عن الصراط السوى ، فإن
 السماء تسلب منه السلطة ؛ وهذا طبعى لأن الملك مادام قد قطع
 برذيلته صلته الداخلية بالسماء ، فيجب أن تزول صلته الخارجية بها .
 ولقد تجسست هذه الفكرة حتى خصص « كونفيشيوس » في
 بعد في قانون العقوبات الذى أنشأه مادة لعقاب الفرد الذى يفتق
 صلته بالسماء .

أقنعت هذه النظرية الملوك بأن الحكم بحمد السيف والخنجر
 مستحيل ، وبأن السلطة الوحيدة الداعمة إنما هي المنبثقة من الفضيلة
 وفي هذا يقول كتاب « إى — كينج » في وعظ الأمراء : « إن
 القوانين القاسية لا تستطيع أن تحقق الرخاء ، وإن نصيب الحر
 يساوى نصيب الخيرية ، وإن القسوة يجب أن تقف عند التوسط
 فإذا ما تعدته فقدت نتيجه النافعة . ومن يطبق القانون بؤداء
 مع حزم ، وبخيرية مع قسوة معتدلة ، يفر بالشهرة ، إذ يكون
 أذى وظيفته على وجه الكمال . إن الشعب إذا أحس بقسوة
 القانون عصاه دون أقل تأنيب من الضمير » ويقول أيضاً : «
 الوداعة الداخلية ، والحزم المعتدل ، والترضية الممنوحة للجم
 من غير استثناء ، والأمانة ، والاستقامة ، كل ذلك هو الله
 يحقق تحيين حال الشعب ويعظم امتداد الثقة حتى تتناول الخنا
 والأشماك »

لم تكن هذه القواعد الأخلاقية عند الصينيين مجرد نظرية
 عملية تسجل في الكتب دون أن تحقق في الواقع ، كلا ، و
 كانت أخلاقاً عملية طبقها الشعب : عامته وخاصته وملوكه . و
 هذا السمو الأخلاقى العملى ما أحدثنا به الأساطير الصينية
 أحد ملوك عصر ما قبل التاريخ ، وهو (هوآنج — تى) أى
 الإمبراطور الأصفر الذى عاش حوالى القرن السابع والعشرين
 قبل المسيح ، والذى تمثله لنا الأسطورة مثلاً أعلى للفضيلة
 والحكمة ، وإن كانت الكتب المقدسة لا تذكر عنه شيئاً
 أما « شو — كينج » فهو يتحدثنا أن بلاد الصين كانت
 سميعة قوية في عهد ملوك الأسرتين : الأولى والثانية أى أسر

ولكن نظرة فاحصة ، وتأملة دقيقة ، تظهر أن هذه السعادة
 المقصودة ليست هي سعادة الفرد ، وإنما هي سعادة المجتمع ، وليس
 ذلك النجاح الموعود به لكفاة الفضيلة هو نجاح الشخص ، وإنما
 هو النجاح في تحسين أحوال البيئة العمرانية التي يقيم فيها الفضلاء .
 وفي الحق أن الأثرة عند الصينيين من أقبح الرذائل ، وأن الغيرة
 أو الابثار في رأيهم من أجل الفضائل ، وأن الفضيلة بوجه عام
 تنحصر في الخضوع الحر الذى يصدر من الفرد نحو مجتمعه
 صدوراً إدارياً ، لأن ذلك المجتمع الممثل في أوامره الحية إنما
 هو عندهم صور أمينة للأوامر السماوية . وهكذا نرى أن القانون
 والحرية هما الدعائتان الجوهريتان للأخلاق الصينية ، وفوق ذلك
 فهما تذكرتنا ببارة « كانت » القيمة ، وهي : « إن السماء التي
 تسطع نجومها فوق رأسى هي عين القانون الأخلاقى الذى
 في داخل نفسى »

نظام الأسرة

كان لرب الأسرة في الصين كما كان في روما حق الحياة
 والموت على جميع أفرادها بدون استثناء ودون أى تدمير أو
 اعتراض ، ولكن بقدر ما كان أبواب الأسر في روما قاسي القلوب
 متججى الأكباد لا يبالون بتضحية فرد أو عدة أفراد في سبيل
 هوى من الأهواء أو شهوة من الشهوات . كان رؤساء الأسر في
 الصين على العكس من ذلك تماماً تفيض الرحمة من قلوبهم ، وينبع
 الحنان من بين جوانحهم ، ولا يسلكون مع جميع أفراد أسرهم إلا
 سبل العدالة والاستقامة ، ولا يتخذون في معاملاتهم إياهم رائداً غير
 الفضيلة ، وإن كانوا لا يتوانون لحظة واحدة في اتخاذ أقصى أنواع
 الحزم إذا تطلبت الحالة الأخلاقية أو الاجتماعية ذلك . أما واجبات
 الرؤساء نحو رؤسائهم في الأسرة من احترام وإخلاص وطاعة
 فإننا نكتفى بما أشرنا إليه منها عند حديثنا عن الأخلاق العامة .

السلطان

تنتقل السلطة إلى الملك عند الصينيين من السماء مباشرة ،
 ولهذا يجب أن يكون فاضلاً ، مستقيماً ، حكماً ، بل قديساً منزهاً
 عن النقص ، لأنه الابن الحقيقى للسماء ؛ وليست البنية المادية هي
 المتبرة ، بل إن الاصطفاء المعنوى هو كل شيء ، وإن منحة السماء